٩٩/٥/٢/٦

بسم الله الرحمن الرحيم

# آفاق الحضارة الاسلامية

تصدر عن معهد العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
عددان في السنة
العدد السادس، السنة الثالثة، رجب ١٤٢١ هـ/
مهر ١٣٧٩ هـ ش / ايلول ٢٠٠٠ م

رقم المنشور القياسي الدولي ١٥٦٢-٦٨٢٢

▣ المديرالمسؤول: الدكتور مهدي گلشني (رئيس معهد العلوم الإنسانيّة و الدّراسات الثّقافيّة)
▣ تحت اشراف هيئة استشارية
▣ رئيس التحرير : الدكتور صادق آئينه‌وند
▣ مديرالتحرير ومترجم المقالات الفارسية: جعفر صادق الخليلي
▣ مدير النشر: حسن فقيه عبداللّهي
▣ المصحح: محمد الغروي النائيني و عبدالكريم النجفي
▣ التنضيد وتنظيم الصفحات : فريال امرائى‌زاده
▣ المطبوع : ١٠٠٠ نسخة
▣ المشرف الفنّي على الطباعة: سيد ابراهيم سيد علي
▣ المطبعة: شركة طباعة فرشيوه
▣ الثمن: ٣٥٠٠ ريال
▣ الاشتراك السنوي: ٧٠٠٠ ريال
▣ العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران
طهران، شارع كردستان، رقم ٦٤، الرقم البريدي ١٤٣٧٤
▣ هاتف: طهران: ٨٠٣٦٣٢٠ و ٣ـ٨٠٤٦٨٩١ فاكس: طهران: ٨٠٣٦٣١٧

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٣٤٤٨
التاريخ ٠٨/٨/٧

# مراجعة الاستشراق
# في مجلة (الفكر العربي)
## العددين ٣١ و ٣٢ (١٩٨٣)

إعداد: محمد رضا وصفي

(ماجستير في علم الانسان الاسلامي ـ المسيحي

(جامعة القديس يوسف ـ لبنان)

مقدمة

هل يستحق منا الاستشراق والمستشرقون وموقف المشارقة من المستشرقين هذا الجهد في دراسة مؤلفاتهم والبحث في مناهجهم وطريقة نقدهم؟

الجواب من دون تردد! لقد قام المستشرقون بجمع المخطوطات العربية وفهرستها وحققوا منها ما أمكنهم وما رأوه ضرورياً لدراستهم وأبحاثهم، فنشروها نشراً علمياً وقد طبعوا في بلادهم الكم الكبير والمهم من المؤلفات العربية والمصادر في التاريخ والأدب والتفسير والحديث والفقه، وترجموا إلى اللغات الغربية عدداً كبيراً من المؤلفات العربية، كما وضعوا المعاجم وكتب القواعد التي خُطط لها بطريقة علمية، واهتموا بمثل ذلك معرّفين الكتب المؤلفة باللغات الإسلامية غير العربية، وواضعين النصوص الأصلية المحققة مع ترجماتها أحياناً بين أيدي الدارسين الغربيين.

إلى ذلك فلقد درس وتعلّم على أيدي المستشرقين الآلاف من العلماء العرب والمسلمين، حاملين علومهم ومناهجهم إلى أوطانهم. وبعد عودتهم إلى بلادهم بدأوا بنقد

الاستشراق والتمييز بين ما هو سقيم وسليم فيما كتب عن حضارتنا وثقافتنا، خصوصاً ما يتعلق بالإسلام والثقافة العربية، واليوم، بالرغم من انقضاء عهد الاستشراق الذهبي، فإن نقده مستمر. وإذا كنا نريد أن نؤسس لعلاقة جديدة بين الشرق والغرب، أو بتعبير أدق، بين الإسلام والغرب، علينا أن نطلع على جذور المد المعرفي لكلا الحضارتين.

على هذا الأساس بدأت مجلة الفكر العربي في أعدديها ٣١و ٣٢ أُولى المحاولات اللبنانية في هذا المجال، فأفردت ما يقارب الثمانمائة صفحة في مقالات متعددة في شتى المجالات المتعلقة بدراسة الاستشراق والبحث فيه. وفي هذا البحث حاولنا عرض هذين العددين من المجلة على بساط العرض والمراجعة إضاءة لحركة الاستشراق في الماضي والحاضر لكي نصل إلى ما نصبو إليه في هذه المراجعة .

## الاستشراق لغة واصطلاحاً

ما يهمنا في بحث الاستشراق هو المعرفة اللغوية والإصطلاحية لهذا المفهوم مع تعريف لشخص المستشرق نفسه، ففي هذين المجلدين نقل العديد من التعريفات اللغوية والاصطلاحية وعبرت هذه التعريفات عن رؤية الباحثين والناقدين والكتاب وطريقتهم وتفكيرهم وانطباعاتهم إزاء مفهوم الاستشراق.

ورد في موسوعة «لاروس» تعريف الاستشراق Orientaliste «**العالم المتضلع في معرفة الشرق وثقافته وآدابه**» .

أما الدكتور **شكري النجار** فيعرّف الاستشراق[١] في مقالة له بقوله : «يؤخذ الاستشراق عادة بعدة معانٍ متداخلة ومختلفة، ولعل أهم معنى للكلمة هو المعنى الأكاديمي، إذ تطلق كلمة مستشرق بشيء من التجاوز على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو بعيد»[٢].

ويتابع :«ثمة مفهوم آخر للاستشراق أعم وهو اعتبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يرتكز على التمييز الانساني والمعرفي بين الشرق والغرب»[٣].

وأما الدكتور **أحمد حسن عبدالسلام** فيعتبر المستشرق هو الفاعل والشرق هو

المفعول به المحدد[٤].

أما الدكتور **رضوان السيد** وعلى أساس الاهتمام الموجود في هذين المجلدين، فإنه يقبض ويبسط في هذا المعنى فيقول:

« إن الاستشراق يتناثر ويدخل في تخصصات متباينة كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم الانسان والاقتصاد والسياسة، ولم يعد هناك عالم واحد اسمه الاستشراق بل هنا عوالم متباينة يحمل كل منها عنوان المجال الذي يهتم به، فإذا كانت مفاهيم الشرق والعالم الثالث والشرق الأوسط متباينة وغير علمية، فإن مفهوم الاستشراق صار اليوم كذلك[٥]، في حين أن كثيراً من المقالات الواردة في هذين المجلدين يقصد بالاستشراق الاستعراب (دراسة أفكار أولئك الذين اهتموا بالشرق الأوسط العربي أو الشرق الأدنى ـ الشرق العربي ـ ونقدها) أو الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية.

السؤال المهم الذي يطرح هنا هو هل إن هذا التركيز سببه كون أن غالبية الكتّاب عرب أم أن لهذا التركيز والتحديد خلفية علمية بالإمكان الاعتماد عليها؟.

بإمكاننا أن نجيب عن هذا السؤال من خلال ما ورد من كلام للدكتور **شكري النجار** إذ يقول:« كان الشرق يعتبر ــ باستثناء الإسلام ــ مجرد امتداد للغرب وتابعاً له ومسرحاً لسيطرته، وظل هذا الفهم قائماً حتى القرن التاسع عشر. هذا القول ينطبق على التجربة البريطانية في الهند والتجربة البرتغالية في جزر الهند الشرقية والصين واليابان ، والتجربة الفرنسية ، والتجربة الإيطالية في مناطق كثيرة في الشرق، ولكن فيما عدا ذلك كان الشرق الإسلامي والعربي هو المنطقة الوحيدة التي كانت تمثل تحدياً سافراً لأوروبا، سواء في المجالات السياسية أو الثقافية، ولذا كان الاستشراق يتميز خلال مرحلة طويلة من حياته، بهذا الموقف المعادي للإسلام والمناوئ للثقافة الإسلامية والعربية» .

كما أن الدكتور **بطرس حلاق** في مراجعته لفكر[٦] **جان بول شارنيه** يصف الاستشراق بأنه نمط علاقة بين حضارتين أو بالأحرى بين حضارة مركزية واخرى (والحضارة المركزية تكون الغرب بالذات والشرق هو الأخرى!) .

إن هذا الكلام الموجز يوضح لنا سبب اعتبار الاستشراق بمعنى الاستعراب للذين يكتبون عن الفكر الإسلامي.

**وإدوارد ســـــعيد** يعتبر أن المستشرقين هم كل أولئك الذي يعنون بالشرق من غير الشرقيين.

أما **مـــالك بـــن نـــبي** في مقالة له تحت عنوان « إنتاج المستشرقين يحدد مصطلح الاستشراق[٧] » فيقول: «إننا نعني بالمستشرقين الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية »[٨].

وعن تعريف المهتمين بالمشرق أو وصفهم يقول **رضوان السيد** في هذا المجال:« إن المهتمين بالمشرق قديماً( لنقل منذ القرن الثامن عشر) كان منهم الرحالة والمبشرون والضباط ورجال الادارة الاستعمارية واللغويون واللاهوتيون وعلماء علم الانسان ومؤرخو الحضارات والخياليون والآثاريون، وأضيف إليهم مطلع هذا القرن التربويون ورجال المخابرات والمؤرخون والاقتصاديون، ومتدربو الشركات وخبراء الأسواق التجارية والسياسيون وذوو النيات الطيبة من المهتمين بحوار الشرق والغرب وعلاقات المسيحية بالإسلام[٩].

## حدود المفهومية للاستشراق:

غالبية الذين كتبوا في هذين المجلدين يحددون حدود المفهومية للاستشراق في ظل علاقة الغرب بالشرق الإسلامي.

لتأصيل مسألة الاستشراق في حدودها المفهومية، يبرز في الأقل ثلاثة مفاهيم صالحة للتداول ويعالجها الدكتور **خليل أحمد خليل:**

أولها: كون الاستشراق ذا دلالة أكاديمية أي كونه بحثاً جامعياً في معرفة الآخرين.

ثانيها: كونه أسلوباً فكرياً قوامه تمايزان أساسان، وجودي ومعرفي، بين غرب يدّعي أنه يعرف نفسه تماماً ـ بنفسه ـ وشرق قابل للمعرفة وعاجز ذاتياً عن معرفة نفسه.

ثالثها: كون الاستشراق متداخلاً مع بنى الدولة الحديثة في الغرب ومتشابكاً مع

توجهات المجتمع المدني فيه قد صار مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق[١٠].

على أساس هذا التحديد نستطيع أن نقول أن الموضوع الذي يطرح في البداية هو المعرفة العلمية (إبيتمولوجيه) ويعتبر د. خليل أحمد خليل أن المستشرقين أخذوا البشر الشرقي حداً للاختبار[١١].

دوافع الاستشراق :

يُطرح خلال المقالات الواردة في العددين ٣١و ٣٢ من مجلة «الفكر العربي» عدة أسباب للاستشراق، ويمكننا أن نحددها على النحو التالي، ولكن قبل تحديدها نشير إلى أن **ميشال جحا** أورد في كتابه تحت عنوان «الدراسات العربية والإسلامية في أوربا» دوافع وأسباباً متعددة للاستشراق، وفي العدد ٣٢ من مجلة «الفكر العربي» راجعه **يحيى حمود** بشكل موجز:

١. المعرفة العلمية: المقالات الواردة في هذين العددين لا تشير بشكل مباشر إلى كلام على الدافع والسبب العلمي للاستشراق، إلا أن بعضهم من خلال طرح أفكار بعض المستشرقين ذكروا نيات حسنة وعلمية لهم. ومن جملة هؤلاء يعدُّ أسماء بعض المستشرقين الروس وبعض المستشرقين الأوربيين أمثال **لوى ماسينيون**.

٢. التبشير: جملة من الكتّاب في هذين العددين كتبوا بالتنديد عن سبب تبشيري للاستشراق وأشد ما كتب في هذا المجال مقالة الدكتور **محمد البهى** تحت عنوان «المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام» فهو يعتبر في هذا المقال أن السبب الرئيس المباشر الذي دعا الأوربيين إلى الاستشراق، هو السبب الديني في الدرجة الأولى ويصف كلاً من التبشير والاستشراق بالاستعمار ويقول هما يدعوان إلى توهين القيم الإسلامية وهذا لم يكن الدعوة إلى المسيحية والعمل على ارتداد المسلمين إلى النصرانية مباشرة، وإنما كانت طريقة تشويه للإسلام ومحاولة إضعاف قيمه، ثم تصوير المسلمين في وضعهم الحالي بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضاري في عصرنا الحاضر[١٢].

٣. الاستشراق السياسي: جميع الكتّاب الذين كتبوا على أساس محور بحثهم عن استعمار الدول الإسلامية وطبيعته طرحوا الاتجاه السياسي أو بالأحرى الدور السياسي للاستشراق ، فلذلك يوازي الدكتور **رضوان السيد** في مقدمة المجلد الأول لهذين العددين عامل السياسة مع علم الاجتماع وعلم الانسان والاقتصاد.

الكاتب **تيسير شيخ الأرض** في مقالة له تحت عنوان «على هامش الصراع الأوربي الإسلامي» يقدم عنواناً «الاستعمار الاوربي» في أحد محاور بحثه من صفحة ١٠٦ إلى ١٢٧ من المجلد الأول.

٤. العداوة ضد المسلمين العرب: يعتبر هذا السبب من أقدم الأسباب لضرورة معرفة الشرق وخرجت في أعقاب الحركة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي وفي هذا الخصوص كتب د. **علي الشامي** في مقالة مفصلة تحت عنوان «الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي» يقول:

> الحركة الصليبية لعبت دوراً مركزياً على مستوى الأحداث العالمية التي تمحورت في بداية العصر الوسيط بين أهم قوتين: الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وخاصة فيما يتعلق بنوعية العلاقة التي ترافقت معها وأعقبتها ومدى تأثيراتها على الرؤية المستقبلية لكل منهما.

وجديرٌ بالذكر أن هذه الحروب والعامل الديني الذي غلفها وضع جنباًإلى جنب رجال الدين ورجال الدنيا وهذا دام حتى عصر النهضة في أوربا[١٣].

وفي هذا السياق يدخل الزمن الصليبي في صلب العلاقة التاريخية المتوترة والعدائية، التي وضعت الإسلام دائماً في حالة دفاع متواصل ضد الغرب الذي لم يكتف بنتائج معركة بواتييه.

كما أسلفنا فإن نظرة معظم الكتاب في هذين العددين من مجلة «الفكر العربي» للاستشراق هي نظرة سلبية.

الخلاصة: أن الاستشراق كان يريد انتاج نماذج راكدة ثابتة للموضوع الشرقي، ومما يلفتنا إليه **ادوارد سعيد** من جهة ثانية هو تحولات المنظومة الاستشراقية، نذكر منها بإيجاز الاستشراق الجامعي، الاستشراق المسيحي الغربي الديني ، الاستشراق المعلمن

المبطن، الاستشراق السياسي، وهكذا ومن خلال أدب الرحلات، والاستشراق الثقافي الشعبي تطورت عمليات البحث عن معرفة الآخر لقهره وغزوه والاستمرار في استغلاله، إلى مؤسسة تابعة للدول بأشكال متعددة .

## التطور التاريخي لمعرفة الغرب بالشرق

التطور المعرفي للشرق يستقطب قسماً مهماً من المقالات الواردة في هذين العددين، وكل منها يقدم قراءة عن هذا الموضوع حسب تعاريف المعرفي للشرق والغرب والصراع بينهما...

على سبيل المثال، الدكتور **نقولا زيادة** في العدد٣١ من مجلة في مقالة تحت عنوان «الغرب يشرق» في البداية قدم تعريفاً جغرافياً عن الغرب والشرق ثم يتناول خلال مقالتيه بحثاً عن تطور المعرفة الأوروبية للشرق..

فهو يعتقد بأن تعرف الغرب وأوربا بالذات إلى الشرق باعتباره الرقعة التي تمتد من سواحل البحر المتوسط غرباً إلى البحار الشرقية النائية، في الهند والصين وأندونيسيا شرقا، عبر قرون طويلة، وعن طريق عدد كبير من الكتّاب والرحالة والجغرافيين والمؤرخين، وقد كانت الفترات تختلف ووسائل اتصال الأوروبيين فيها بهذا الشرق باختلاف الدوافع وتعدد البواعث، ويمكن القول إجمالاً بأن الآلاف من الكتب والنشرات التي وضعت عن هذه المنطقة الواسعة لم تكن جميعها تقدم للقراء حقائق ومعلومات.

إذ إن الكثير منها وحتى في القرن الرابع عشر مثلاً، كان يحتوي، إلى جانب الحقائق والمعلومات، الكثير من الأساطير والخرافات التي كان الخلف ينقلها عن السلف، لا رغبة في تشويه الواقع، ولكن لأنه كان يعتقد أن هذا هو الواقع، ولعل خير ما نفعله، هو أن نتابع هذا الأمر في عصوره المختلفة بدءاً من التقاليد القديمة اليونانية إلى أن وصلت أوربا، عن طريق البرتغاليين، إلى الهند ثم نقف عند القرن السادس عشر لنخلص إلى ما كانت قد وصلت إليه المعرفة ــ العامة ــ من هذه الرقعة الواسعة[١٤].

كما يتبين من مقالة الدكتور. **نقولا زيادة** فإن مفهوم الشرق هو مفهوم واسع ويشمل كل

الدول الشرقية (الإسلامية وغير الإسلامية)، وهو انطلاقاً من هذين المفهومين يطرح جزءاً من التطور التاريخي لمعرفة الغرب بالشرق.

وأما في نظر الكتّاب الذي يطرحون مفهوم الشرق الإسلامي ومعناه ويدخلون في صلب العلاقة التي وضعت الإسلام دائماً في حالة دفاع متواصل ضد الغرب في هذا السياق نفهم أن الحركة الصليبية قد لعبت دوراً مركزياً على مستوى الأحداث العالمية التي تمحورت في بداية العصر الوسيط بين أهم قوتين "الشرق الإسلامي والغرب المسيحي" وخاصة فيما يتعلق بنوعية العلاقة التي ترافقت معها وأعقبتها ومدى تأثيراتها على الرؤية المستقبلية لكل منهما.

في هذا السياق يقول الدكتور **علي الشامي**:

لذلك لم تكن الجهود الاستشراقية التي خرجت إلى الوجود في أعقاب الحركة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، مجرد تخيلات حول الشرق الإسلامي صاغها رحالة أوروبيون بقدر ما كانت تتويجاً فكرياً لمرحلة تاريخية مهمة سعى الاستشراق البدائي لتصويرها بشكل معاكس: انتصار الغرب المنهزم وهزيمة الإسلام المنتصر [١٥].

الحروب الصليبية لعبت دوراً مركزياً لتعبئة المعتقدات والعرقية أتاحت عصبية للغرب الأوربي إبان الحروب الهائلة بين الإسلام والغرب، وأعتقد اليوم أننا عندما نريد أن نراجع هذا التاريخ يهمنا أن نعرف في البداية أياً منهما كان سبب إنتاج هذه العصبية.

كثير من الباحثين يقولون أن الحركة الصليبية هي الأساس والأصل الذي قامت عليها عصبية الغرب تجاه الإسلام، عصبية لم تظهر حدتها وسلبياتها سوى في الإطار الذي رسمته أوربا لنفسها، سياسياً وجغرافياً و عقائدياً، وذلك منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

الدكتور **علي الشامي** يقول هنا: "تاريخ القرون الأربعة الفاصلة بين بدء الدعوة الإسلامية وقدوم الحملة الصليبية الأولى، يلحظ علامة واضحة ربطت مسيحيّي الشرق بالمشروع الإسلامي، ويشهد انفتاحاً حضارياً تاماً من قبل الإسلام تجاه الغرب المسيحي المتطلع بلهفة وحذر نحو حدود الأندلس. لم تكن العصبية الإسلامية المعادية

للغرب وليدة تحول داخلي في مسار الدعوة الإسلامية بقدر ماكانت نتاجاً طبيعياً لفعل الغرب نفسه، فالعصبية الإسلامية العامة التي نمت وتشكلت في المراحل الأولى لانتشار الدعوة، لم تأخذ إطلاقاً صورة عدائية تجاه المسيحية، فهي، أي العصبية، لم تتطور على قاعدة العداء للأديان أو للشعوب الأخرى، بل سعت عملياً نحو هدفين متلازمين: تأمين وحدة الجماعة، ومواصلة نشر الدعوة. أما تحولها إلى عصبية دفاعية، فإنه يعود أساساً إلى الشكل الذي اتخذته ردة الفعل الإسلامي تجاه المشروع الصليبي، بشكل حوّل بدوره ردة الفعل إلى فعل واعٍ أسس لاحقاً مرتكزاً تاريخياً مهماً من مرتكزات الموقف الإسلامي تجاه الغرب[١٦].

وردة الفعل الإسلامي لم تكن ضد المسيحية بل ضد الغرب الذي تقنّع بالدين ضده، لأن علاقة الإسلام بالمسيحية ـ خاصة المسيحية الشرقية ـ لم تكن مصدر قلق للمسلمين، ولذلك نقل **ويل ديورانت** الحقيقة نفسها وأرفقها بإعجاب وتقدير بحيث أنه لم يتردد في اعتبار تسامح الإسلام تجاه المسيحيين أكثر تسامحاً من المسيحيين أنفسهم، وبهذا المعنى يقول: «لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزردشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية [١٧]».

على هذا الأساس خرجت العصبية الإسلامية من رحم العنف الصليبي، الذي وحّد أهدافه بين المسيحية الغربية والسيطرة على الشرق.

أما بعض المؤلفين في الشرق فقد درسوا جزءاً معيناً من التطور التاريخي لمعرفة الغرب بالشرق. من جملة هذه المؤلفات مقالة ترجمها الدكتور **رضوان السيد** عن **ريتشارد سودرن**، ففي دراسته يدرس الدكتور **رضوان السيد** الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر الميلادي إلى الثالث عشر الميلادي تحت عنوان «صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى حقبة التعقل والأمل».

في هذه الدراسة يكتشف القارئ مقدار الخطأ الذي كان متولداً لدى الأوروبيين فيما خص المفاهيم والمعتقدات الإسلامية، فعلى سبيل المثال عندما نطالع هذه الفترة نجد أنه

كان أول أوروبي أكّد أن المسلمين لا يعبدون محمداً بل يعتبرونه نبياً وصاحب رسالة، وجاءت كتابات جلهم هذه حوالي العام ١١٢٠م عندما كان تزييف الإسلام والروايات الخيالية حوله تقارب الذروة، يتبادر إلى الأذهان كيف كان فهم الأوروبيين للمعتقدات الإسلامية شنيعاً وبعيداً عن الواقع.

كذلك يذكر في هذه الرسالة مدى أهمية الترجمة الأولى للقرآن الكريم إلى اللاتينية ويقول: «وسيضلل **ديـر كـلوني** Cluny معلماً تنويراً في تاريخ العلاقة بين المسيحية والإسلام، للعمل الضخم والمتقدم الذي قام به رئيسه **بـطرس المـبجل** Petrus Reneralis عندما رعى أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية، فهذه الترجمة التي قام بها العالم الإنكليزي **روبرت كتون** Robert Ketton وموّلها **بطرس المبجل** (أنجزت في شهر يوليو ١١٤٣م) شكّلت المعلم البارز والأساس في مجال الدراسات الإسلامية بأوروبا الغربية»[١٨].

**ريـتشارد سـودرن**، خلال دراسته، يشرح آثار دخول المغول إلى المسرح السياسي التاريخي ومدى تأثيره على العلاقات بين اوروبا والإسلام ويقول:

> جاء المغول إلى المسرح التاريخي الأوسع ليكونوا العامل الأول في تغيير للمسألة الإسلامية بأوروبا الوسيطة، ذلك أن هذا الحدث الضخم ترك تأثيرات متعددة الوجوه والجوانب على الأوروبيين... فانهم ـ المغول ـ لم يكونوا يشكلون خطراً على المسيحية الأوروبية من الناحيتين: الفكرية والعسكرية، ثم نشأ موقف معقداً نوعاً ما، فالمغول القُساة كانوا بحكم الضرورات الجغرافية أعداء للإسلام وليس للمسيحية الأوروبية، وقد أمّل لاهوتيون كثيرون في إمكان استخدام المغول أداة لضرب الإسلام ـ عن طريق اتباع سياسة ذكية في التعامل معهم وفهم أهدافهم القريبة.

وكانت هناك آثار أخرى لظهور المغول في تاريخ القرن الثالث عشر، فقد أدرك الأوروبيون بوضوح كثرة النقاط المشتركة بين المسيحية والإسلام في المجالين العقائدي والأخلاقي، وما كان ذلك جديداً تماماً إذ بدأ الأمر في القرن الثاني عشر، لكن غرابة وثنيات المغول في القرن الثالث عشر وضعت النقاط المشتركة بين المسيحية والإسلام في ضوء جديد.

كذلك تعتبر هذه الدراسة بحثاً مهماً عن الحملات الصليبية وإضاءة جيدة لبعض المحطات التي لم يعالجها الآخرون بشكل دقيق، خصوصاً الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢٢١م، تلك الحملة الوحيدة التي شاركت فيها البابوية مشاركة فعالة[١٩].

وأما تحت هذا العنوان فيجب علينا أن نذكر ما ورد من قراءة للكتب حول التطور التاريخي لمعرفة الغرب بالشرق الإسلامي وأهمها عبارة عن "**الدراسات العربية** والإسلامية في أوروبا" للدكتور **ميشل جحا** ص ١٧٨ من المجلد الثاني، فهو يعالج في كتابه موضوع لغة الأمة العربية والإسلامية وحضارتها ويعرض جانباً مهماً من أعمال المستشرقين الانجليز والإيطاليين والأسبان والألمان.

وفي المقدمة يدرس المؤلف الاستشراق اصطلاحاً، وتاريخ هذه الحركة وأبرز الأسباب التي أدت إلى الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية ليبحث في آخر المطاف نظرة المشارقة إلى المستشرقين ويرى أن بعضهم قد نظر إلى المستشرقين نظرة المشكك، واتهمهم بالتجسس والعمالة لغايات استعمارية، ووضعهم في مصاف الأعداء للعروبة والإسلام، أمثال **أحمد فارس الشدياق**، الأمير **شكيب أرسلان**، **مالك بن نبي**، و **محمد حسنين هيكل**، وهناك فريق من المشارقة وضعوا المستشرقين في أعلى المراتب وبرأوهم من كل عيب أمثال **محمد كرد علي**، الدكتور **صلاح الدين المنجد**، وبرأي المؤلف الدكتور **ميشل جحا** أنه ليس لهؤلاء ولا أولئك أي حق فيما يدعون، وبرأيه ليس كل المستشرقين عباقرة وليس ما قاموا به أعمال لا غبار عليه أو خالياً من الشوائب.

و هنا يعرض المؤلف للفريق الثالث وهو من بينهم ممن جعلوا موقفاً وسطاً وحاولوا أن ينصفوا المستشرقين، أمثال الدكتور **عبدالرحمن بدري** والدكتور **فيليب حتي**[٢٠].

الكتاب الآخر الذي عالج هذا الموضوع قذدّم في مجلة «الفكر العربي» وكتب مراجعة عنه هو « تاريخ الاستشراق الأوروبي«**لغوستاف ديغا**» وكتاب آخر يجدر الاهتمام به في هذين العددين هو كتاب «الدراسات العربية في أوروبا» **ليوهان فك**. من النقاط المهمة التي طرحت في الكتاب الأول المذكور آنفاً عبارة عن الحساسية في تاريخ الاستشراق بالمنظور الألماني المنهجي لذلك ملاحظات مهمة لم تعالج وكأن الكاتب لم يكن على

وعي بأهميتها، والمراجع الدكتور **حسان علوان** يقول الواضح المدهش على كل حال، أن كل الذين عملوا على الاستشراق فيما بعد استعانوا بهذا الكتاب للانطلاق بأعمالهم. الكتاب ليس بالعمل التحليلي وتركز على كل الذين اهتموا بالدراسات العربية أي كتبهم ومنشوراتهم التي حققوها.

وفي ختام هذا الفصل نذكر موجز ما كتبه الدكتور **جبور الدويهي** في المجلد الثاني لهذين العددين تحت عنوان المرحلة وكتب الرحلات الأوروبية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر، فالكاتب هنا يتناول بالايجاز الرحلات والرحالة الأوروبيين إلى المشرق (الامبراطورية العثمانية : مصر، سورية، الأردن، فلسطين، ولبنان...) حتى نهاية القرن الثامن عشر أي قبل ظهور الاستشراق المتخصص[٢١].

**كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد الأكثر حضوراً في هذين العددين**

أحدث **إدوارد سعيد** زلزالاً فكرياً في كتابه «الاستشراق» لذا كان الأقوى حضوراً في المقالات الواردة في هذين العددين، فالكتاب الذي صدر بالإنكليزية وتُرجم إلى تسع لغات هي: الفرنسية، الألمانية، الأسبانية، الإيطالية، التركية، الفارسية، الماليزية، اليابانية، والعربية، صار الدافع الأصلي لصدور العددين المخصصين للاستشراق في مجلة «الفكر العربي»، في العددين ٣١و ٣٢ يصف الدكتور **رضوان السيد** هذا الكتاب بالكتاب الحضاري والسياسي من الطراز الأول[٢٢].

وهو، بصفته رئيسا لتحرير «الفكر العربي» في ذلك الوقت يكتب في مقدمة المجلد الأول: « أما هذان العددان من مجلة «الفكر العربي» واللذان يحملان اسم «الاستشراق - التاريخ والثقافة والمنهج» فقد بدأنا بإعدادهما بالمعهد منذ أكثر من عام على أثر النزاع العنيف الذي أثارته ترجمة كتاب **إدوارد سعيد** إلى العربية، ومما يؤسف له أن لا يكون النقاش الذي أثارته هذه المحاولة العلمية الجادة بمستوى المحاولة نفسها، إذ فهم منها السلفيون أنها ربط نهائي للاستشراق بالتبشير والسياسة الاستعمارية، وفهم منها اليساريون إدانة للاستشراق الغربي وانتصاراً للاستشراق الروسي، مع أن الرجل لم ينس

مركزية ماركس. ورأى فريق ثالث أن الرجل يبقى أميركياً لا ينقض بل ينقد، لذلك ينبغي الحذر منه، وينصح لنا **صادق جلال العظم** (مفكر سوري) شأنه بالخروج على ما يعتبره مألوفاً بأن نحذر من نرجسية سعيد المشرقية في مواجهة الغربية المعروفة، رغم اعتباره له أميركياً متواطئاً[٢٣].

وكتاب الاستشراق **لإدوارد سعيد** راجعه الدكتور **فايز ترحيني** في ص ١٥٢ من المجلد الثاني. وكما جاء في مقدمة هذا الكتاب يصف الاستشراق باختراع غربي... " مكان للتجارب الاستثنائية " وجزء تكاملي من حضارة أوروبا وثقافتها الماديتين. وللاستشراق في فهمه صور ودلالات كثيرة أهمها: الدلالة الجامعية الأكاديمية أو وظيفة القيام بالاختصاصات المتنوعة والدراسات المتشعبة، وغايتها التعبير عن الشرق وتمثيله بما يخدم مصالح الغرب ومخططاته، يرى **إدوارد** أن المعرفة الاستشراقية كانت تعتمد أساساً على النص (الإنشاء) لتركيز السلطة. وأكثر تلك النصوص كانت تخيلية لا تصور الواقع تصويراً مبدعاً ولا حتى ناسخاً، فالشرق كما نقله المستشرقون إلى قرائهم ليس كما هو في الواقع، بل كما خطط له أن يكون، لذلك أضحت عملية تطبيق النص الإنشائي المشرقي على الشرق والشرقيين أزمة، خلقت عند الأوروبيين الشعور بالفوقية والدونية وجعلت الشرق يعاين بوصفه من مخلوقات الغرب التي يجب أن تحكم وتمثل وتوطاً بالمناسم[٢٤].

**ادوارد سعيد** يقول:

> الإسلام وأقاليمه كانوا يشكلون محور الاستشراق الأوربي حتى القرن الثامن عشر، لكن المستشرقين الذين جاؤوا بعد ذلك التاريخ، جعلوا البنى الاستشراقية فرعاً من فروع المعرفة التي تنتمي بدورها إلى المعتقدات العلمانية وشبه الدينية، كما أنهم مهدوا الطريق أمام الاستشراق الحديث الذي ارتكز على أربعة عناصر:

١. التوسع (توسع الدراسات إلى خارج حدود العالم الإسلامي).

٢. المجابهة التاريخية بين الحضارات (القدرة على التعامل التاريخي مع الثقافات غير الأوربية قد ازدادت قوة وأصبح الفهم الأوروبي للشرق فهماً أكثر معقولية).

٣. التعاطف (اضطر الغرب تحت وطأة المصالح، أن يقلل من حدة الصراع الديني وأن يتظاهر بالتعاطف مع مطالب الشعوب الشرقية ذات النزعة الإنسانية).

٤. التصنيف (إن تصنيفات البشر تجاوزت ما سميت ذات يوم بالأمم المقدسة والأمم المدنسة).

ثم إن **إدوارد سعيد** يقسم المستشرقين الجدد إلى ثلاثة أنواع: أولهم المستشرق الذي يقيم في الشرق لغرض محدود وهو تزويد الاستشراق بمادة علمية ويعتبر إقامته شكلاً من أشكال الملاحظة العلمية. وثانيهم الكاتب الذي يسعى إلى الغرض نفسه، غير أنه أقل استعداداً للتضحية بالشذوذية المميزة لوعيه الفردي من أجل التحديدات الاستشراقية اللاشخصية.

وثالثهم: المستشرق الذي تكون المرحلة الحقيقية أو المجازية إلى الشرق، بالنسبة إليه تحقيقاً لمشروع ملح ونابع من انفعال ذاتي عميق، لذلك يأتي نصه مبنياً على جمالات شخصية.

ثم يتتبع الدكتور **سعيد** رحلة الحجاج الفرنسيين والبريطانيين، فالفرنسيون بالإجمال لم يبحثوا في الشرق عن حقيقة علمية بقدر بحثهم عن حقيقة غربية وبالتالي عن ذواتهم"[٢٥].

من المناسب أيضاً أن نشير إلى أن المراجع الدكتور **فايز ترحيني** ينقد بالإجمال الأفكار المطروحة في كتاب **ادوارد سعيد** ويقول:

> رغم ذلك فإن المؤلف وقع في التعميم خصوصاً حين جعل هدف الاستشراق سياسياً في المطلق، وحين رأى في الإسلام التحدي الوحيد الذي واجهته أوروبا في الشرق، وحين حصر معرفة المستشرقين بشرق وهمي خيالي إنشائي نصي. على ذلك يبدو أن اطلاع المؤلف على شرقنا غير كاف، لأن ثمة أفكاراً قررها المستشرقون عنا، فيها شيء من الصحة وإن كان فيها الشيء الكثير من المبالغة[٢٦].

في نهاية هذا الفصل نشير إلى أن المقالات التي ترتبط بالحروب الصليبية قد ذكرت آراء **إدوارد سعيد** وكذلك الدكتور **خليل أحمد خليل** في مقالته تحت عنوان «الاستشراق

مشكلة معرفة أم مشكلة اعتراف بالآخر؟» ثمة تحليلات عديدة حول أفكار **إدوارد سعيد** حين يقول:

يأتينا كتاب **ادوارد سعيد** ليرصد مساراً تاريخياً في التصادم والتحول العلائقي بين الشعوب في الشرق وشعوب الغرب... وهو( **إدوارد سعيد**) في تحليله يسعى لتجاوز العقائدية الغربية والشرقية على السواء.

## النظرة الإسلامية لأوروبا والاستشراق

يمكننا أن نميز بين مرحلتين في تاريخ النظرة الإسلامية لأوروبا:

المرحلة الأولى: وهي النظرة القديمة التي استندت إلى الموقف التقليدي الإسلامي الذي يقسم العالم إلى دارين، دار الإسلام ودار الحرب.

المرحلة الثانية: المتزامنة مع بروز القوة الأوروبية في حوض المتوسط مع بروز الدولة العثمانية أيضاً.

هذا التقسيم يرد في مقالة الدكتور **خالد زيادة** في العدد ٣٨ من مجلة «الفكر العربي»، فهو في المرحلة الثانية يتكلم على التفاعلات والانطباعات التي برزت مع نشأة الدولة العثمانية وانتشارها في العالم.

وأما بالنسبة للرؤية الإسلامية إلى الاستشراق والمستشرقين فيمكننا القول إن كل ما أورده الكتّاب العرب في هذين العددين يعتبر جزءاً من الرؤية الإسلامية للاستشراق، تلك التي تشتمل على نظرة تشاؤمية ونظرة سلبية إلى حد بعيد أو معتدلة عند بعضهم، في حين أن النظرة المتشائمة تتوجه إلى الاستشراق الروسي أو إلى بعض الملاحظات حول النقد العربي الاستشراقي.

المستشرقون الغربيون الذين أخذوا جانب الانصاف في آرائهم ومن الطبيعي أن هذه النظرة غير المتشائمة لا تنطبق على ما بدأه الدكتور **مصطفى الخالدي** عام ١٩٩٩ تربط بين المستشرقين الذين درسهم والعلاقة بين التبشير والاستعمار.

وأما في هذا السياق فمن المناسب أن نذكر ما جاء في مراجعة الفصل الأخير من كتاب

"الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا " تحت عنوان نظرة المشارقة إلى المستشرقين[٢٧].

تحت هذا العنوان يبحث المؤلف في اختلاف نظرة المشارقة إلى المستشرقين ويرى أن بعضهم قد نظر الى المستشرقين نظرة المشكك واتهمهم بالتجسس والعمالة لغايات استعمارية ووضعهم في مصاف الأعداء للعروبة والإسلام أمثال **أحمد فارس الشدياق**، الأمير **شكيب أرسلان**، **مالك بن نبي**، و **محمد حسنين هيكل**.. وغيرهم، بالمقابل هناك فريق من المشارقة ألّه المستشرقين ووضعهم في أعلى المراتب وبرّأهم من كل عيب أمثال **محمد كرد علي**، الدكتور **صلاح الدين المنجد**، والصحيح بر أي المؤلف أنه ليس لهؤلاء ولا أولئك أي حق فيما يدعون، وبرأيه ليس كل المستشرقين عباقرة، وليس ما قاموا به من أعمال لا غبار عليه ولا خالياً من الشوائب.

فلا شك أن بعضهم كانت لديه مآربه السياسية أو الدينية فأقدم على دراسة اللغة العربية خدمة لغاياته وأهدافه، لكن ليس جميع المستشرقين عملاء وأصحاب مآرب دينية وغايات استعمارية.

وهنا يعرض المؤلف للفريق الثالث و هو من بينهم الذين جعلوا موقفاً وسطاً وحاولوا أن ينصفوا المستشرقين، أمثال الدكتور **عبدالرحمن بدري** والدكتور **فيليب حتي** ... وغيرهما. ■

## الهوامش

١. انظر مادة *Orientaliste* في موسوعة لاروس الكبرى، باريس ١٩٦٢

*Grand LareusseencycIopedigue Paris*, 1963. VII (1003-1004)

٢. مجلة «الفكر العربي»، العدد ٣١، ص ٦٠.

٣. المصدر نفسه.

٤. المصدر نفسه، ص ١٨٨.

٥. المصدر نفسه ص ٩.

٦. المصدر نفسه ص ٦٦.

٧. المصدر نفسه، العدد ٣٢ ص ١٤٥.

٨. المصدر نفسه، ص ١٣٠.

٩. المصدر نفسه، العدد ٣١ ص ٧.

١٠. المصدر نفسه، العدد ٣٢ ص ٥٣.

١١. المصدر نفسه، العدد ٣١ ص ٥٥.

١٢. المصدر نفسه، العدد ٣٢ ص ١١٦ ـ ١٢٩.

١٣. المصدر نفسه، العدد ٣١ انظر ص ١٣.

١٤. المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ص ٥٩.

١٥. المصدر نفسه ص ١٤٠.

١٦. المصدر نفسه.

١٧. المصدر نفسه، ص ١٤٣.

١٨. المصدر نفسه، العدد ٣٢ ص ٢٥.

١٩. المصدر نفسه ص ٢١.

٢٠. المصدر نفسه، العدد ٣٢ص ١٨٢ ـ ص ١٩٠.

٢١. المصدر نفسه، ص ٥٨ ـ ٦٥.

٢٢. المصدر نفسه، العدد ٣١ ص ٥.

٢٣. المصدر نفسه ص ٢٣ .

٢٤. المصدر نفسه، العدد ٣٢، ص ١٥٥.

٢٥. المصدر نفسه، العدد ٣١ ص ١٥٧.

٢٦. المصدر نفسه، العدد ٣٢، ص ١٥٨.

٢٧. المصدر نفسه ، العدد ٣١ ، ص ١٨٨.